الفصل الثانى

أوَّل المسْلِمين

ونعود إلى الموضوع من جديد، نعود إليه لنعالجه من زاوية الرسول ﷺ كنمط واقعى، تحقق بالفعل، بعد أن تحدثنا عن الموضوع من الجانب النظرى، لقد طبَّق رسول الله ﷺ الإسلام تطبيقًا واقعيًا، طبقه فى نفسه، وطبقه فى وسطه المحيط به، وانتقل الإسلام بهذا التطبيق من دائرة النظريات إلى دائرة الواقع، ومن دائرة المبادئ إلى دائرة التحقيق..

وبذلك برئ الإسلام من طابع المبادئ الخيالية أو المستحيلة التحقيق.

لقد تحقق الإسلام فى أشخاص، وتحقق فى بيئة.

ونعالج الموضوع الآن من زاوية أكمل شخصية حققته..

ونعتذر عن بعض التكرار الذى حدث نتيجة لافتراضنا أننا نعود إلى الموضوع من جديد وكأننا لم نكتب فيه من قبل؛ إذ بذلك يتأتى لنا شرح الفكرة كاملة من طريقين: الطريق النظرى، والطريق الواقعى.

ولنأخذ الآن فى الحديث عن أول المسلمين :

سئلت السيدة عائشة رضوان الله عليها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت:

« كان خُلقه القرآن ».

ومع أن هذا الوصف من أم المؤمنين واضح وضوحاً لا لبس فيه، فإننا مع ذلك نحاول له تحديدًا نراه ضرورياً، وبيانًا نراه حتمًا.

ذلك أن الأخلاق القرآنية تحدد الخلق الكريم فى حده الأدنى، وترسم الفضيلة فى درجاتها الأولى، ثم لا يقتصر القرآن على ذلك، وإنما يرسم القمم من مكارم الأخلاق، ويوجه إلى السنام منها، ويقود إلى المشارف العليا من درجات المقرَّبين:

إنه يتحدث عن « **المقتصد** ».

وعن « **السابق بالخيرات** ».

إنه يتحدث عن « **أصحاب اليمين** »..

ويتحدث عن « **المقربين** »، ويبين أن المقربين أقل عددًا من أصحاب اليمين، فهم ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين[1].

أما أصحاب اليمين فإنهم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، على حد التعبير ـ عن أصحاب اليمين وعن المقربين ـ فى سورة الواقعة[2].

ولنضرب لذلك مثالاً :

إن مقابلة السيئة بالسيئة عدل.

يقول الله تعالى:

﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾[3].

---

(١) انظر سورة الواقعة : ١٠ ـ ١٤

(٢) انظر سورة الواقعة : ٣٨ ـ ٤٠ ، ٨٨ ـ ٩١ .

(٣) سورة الشورى : ٤٠ ٤

ولكن القرآن ـ مع بيان عدالة هذا ـ يذكر درجة أعلى من الخلق الكريم، تلك هى :

درجة « **كظم الغيظ** ».

وهذا الذى ـ مع مقدرته على مقابلة السيئة بالسيئة ـ يكظم غيظه، أسمى فى ميزان الأخلاق الكريمة من الذى يقابل السيئة بالسيئة.

ولا يقف القرآن عند هذا الحد، وذلك أنه يرسم درجة ثالثة من الخلق الكريم، وذلك أنه يتجاوز « **مقابلة السيئة بالسيئة** » ، و« **كظم الغيظ** » إلى « **العفو** ».

والعفو مع المقدرة أسمى من « مقابلة السيئة بالسيئة » وأسمى من «كظم الغيظ ».

ثم يتجاوز القرآن كل ذلك، إلى الدرجة العليا، درجة المقربين: وهى **الإحسان**.

يقول تعالى:

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾(١).

ويقول تعالى:

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٢).

---

(١) سورة الشورى : ٤٠

(٢) سورة آل عمران : ١٣٤.

إنهـا درجات مـن الخـلق الكريم، كلها كريمة، بيد أنها تتفاوت ـ فيـما بينهـا ـ من كريم إلى أكرم، كـتفاوت النـاس فى الشرف، من شريف إلى أشرف.

ويحق لنا الآن أن نتساءل:

هل تريد السـيدة عائشـة رضي الله عنها، حينمـا تصفه ﷺ بـأن خلقه القرآن:

هل تريد الخلق القرآنى الكريم فى حده الأدنى ؟

أم تريده فى حده الأوسط ؟

أم تريده فى حده الأسمى ؟

ويحل لنا القرآن هذه المسألة، فيحدد ـ بصورة عامة وبطريقة مجملة ـ الدرجة التى وصل إليـها الرسول ﷺ من الخلق القرآنى، فـيقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١).

يقول صاحب الشفاء:

« أثنى عليه بما منحه من هباته، وهداه إليه، وأكد ذلك ، تتميمًا للتمجيد بحرفى التأكيد، فقال تعالى:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٢).

---

(١)، (٢) سورة القلم : ٤.

قيل: القرآن.

وقيل: الإسلام.

وقيل: الطبع الكريم.

وقيل: ليس لك همة إلا الله». اهـ.

قال الواسطى:

« أثنى عليه بحسن قبوله، لما أسداه إليه من نعمة، وفضله بذلك على غيره، لأنه جبله على ذلك الخلق». اهـ.

وقد تحدث الصحابة والتابعون عن هذه الآية الكريمة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: « معناه: على دين عظيم، لا دين أحب إلى الله ولا أرضى عنه منه، وهو دين الإسلام».

وقال قتادة:

« هو ما كان يأتمر به من أوامر الله وينتهى عنه من نهى الله تعالى والمعنى: إنك على الخلق الذى أمرك الله به فى القرآن». اهـ.

ومع ذلك، ومع كل ما قيل فى هذه الآية الكريمة من أنها تكريم وتمجيد، ومدح وثناء، ومع إيماننا بأنها تتضمن كل المعانى الكريمة التى قيلت، والمعانى الشريفة التى ستقال: فإننا نرى أن الأمر لا يزال بحاجة إلى بيان الدرجة بياناً تاماً.

فقد يتساءل بعض الناس عن هذا الخلق العظيم:

أكان يشارك رسول الله ﷺ فيه نبى مكرم ؟

أكان يشاركه فيه رسول مجتبى ؟

أكان يشاركه فيه ملك مقرب ؟

ألم يكن سيدنا إبراهيم على خلق عظيم، وهو الحليم الأواه المنيب ؟

ألم يكن سيدنا إسماعيل على خلق، وكان عند ربه مرضيًا ؟

ألم يكن سيدنا عيسى علىٰ خلق عظيم، وقد جعله الله مباركاً أينما كان ؟

على نبينا وعليهم جميعاً أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

والملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ومنهم جبريل وميكائيل وحملة العرش، أليسوا على خلق عظيم ؟

أيشارك أحد من هؤلاء رسول الله ﷺ فى درجته ؟

أيماثلون رسول الله ﷺ فى الخلق العظيم ؟

ويسعفنا القرآن الكريم بهذا التحديد إسعافاً يرضى التطلع إلى المعرفة، ويشرح صدور المحبين لرسول الله ﷺ . .

إن القرآن الكريم يحسم الأمر حسماً لا يدع فيه مجالاً للبس، ويسفر عنه إسفاراً لا يدع مجالاً لريب، يقول الله تعالى لرسوله الكريم:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾[1].

هذه الآية القرآنية الكريمة تحدد درجة الأخلاق القرآنية التى وصل إليها الرسول ﷺ : إنها ذروتها وسنامها.

وقد بعث ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق.

إنه ﷺ بعث ليتمم المكارم الأخلاقية؛ليتممها بذاته؛ بسلوكه.

وليتممها بقوله؛ برسالته.

إنه لم يبعث لينشر الأخلاق الكريمة فحسب، وإنما بعث ليتمم مكارمها.

ومكارم الأخلاق لم تكن ـ قبل الرسول، صلوات الله وسلامه عليه ـ قد تمت، إن أول المسلمين لم يكن قد وجد بعد، وكانت بذلك مكارم الأخلاق ناقصة، كان ينقصها أكمل صفة لمكارم الأخلاق، وهى إسلام الوجه لله إسلامًا تاماً.

إن الكائنات لم تكن قد وصلت ـ لا فى نبى مرسل، ولا فى ملك مقرب ـ إلى الذروة من إسلام الوجه لله، والذروة من إسلام الوجه لله أو أول المسلمين ـ والتعبيران سواء ـ إنما هى الذروة من مكارم الأخلاق.

---

(١) سورة الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣.

إن الكائن الربانى: إن أول المسلمين: أولهم بإطلاق، أولهم بالنسبة للملائكة، وأولهم بالنسبة لبنى آدم، أولهم قديماً وأولهم حديثاً وأولهم إلى الأبد. . . إن أول المسلمين لم يكن قد وجد بعد.

وكانت الإنسانية بذلك ناقصة، وكانت الكائنات كلها بذلك ناقصة.

كان الكون ناقصاً مادة ومعنى، كان ينقصه أن تتعطر أرضه بأزكى الأجساد، وأن يتعطر جوه بأزكى الأرواح، وكان لابد من وجود كائن بهذه المثابة يكمل الله به الدين، ويتم به النعمة، ويرضى رسالته ديناً عاماً خالداً للإنسانية أجمع: هو إسلام الوجه لله.

وينزل القرآن محدداً إسلام الوجه لله وسائلَ، ومحدداً إسلام الوجه لله غايات، محدداً إسلام الوجه لله طرقاً وأساليب، ومحدداً له بواعث وأهدافاً.

ومن أجل أن الإسلام هو إسلام الوجه لله، والتسليم له، والاستسلام لما يحبه ويرضاه:

فإن من يبتغى غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه.

وكيف يقبل منه ما يتنافى مع إسلام الوجه لله ؟

إن إسلام الوجه لله هو جوهر التدين، إنه دين القيمة، إنه الدين الخالد والنص الوحيد، النص الإلهى الفريد فى العالم كله الذى يبين كيفية إسلام الوجه لله، إنما هو القرآن.

وإذا ما وصل الإنسان إلى إسلام الوجه لله كان بذلك فى ذروة الإنسانية، وفى الذروة من مكارم الأخلاق.

ويتفاوت الناس فى إسلام وجوههم لله ، ولابد من أن يكون أحدهم أول، فكان رسول الله ﷺ أولهم بإطلاق مطلق.

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾[1].

ولم يصف القرآن بأول المسلمين شخصاً آخر غير رسول الله ﷺ ، ولو لم يوجد أول المسلمين المتمم لمكارم الأخلاق، ذلك الذى كانت صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين، لو لم يوجد هذا الكائن الربانى، لظل العالم مستشرفًا إليه ليكمل به، ولظل العالم ناقصاً مادة وروحًا..

فلما وُجد ﷺ انتهت حكمة الله بوجوده، وبرسالته إلى ما بيَّنه الله تعالى بقوله:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[2].

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله.

❑❑❑

(١) سورة الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣.

(٢) سورة المائدة : ٣.